مقدمة

كثيرة هى الكتب التى تناولت الجريمة فى القرآن الكريم، ولكنها اقتصرت فى دراستها لها على الجانب التشريعى، بمعنى التجريم والعقاب، فضلا عن بيان الأسباب التى من أجلها جرم الفعل أو الترك، والأسباب التى من أجلها تقررت العقوبة نوعا وكما، مثال ذلك جرائم الزنا والقذف والسرقة وغيرها من جرائم الحدود. أما الدراسات التى تناولت الجريمة من حيث دوافعها أو بواعثها والعوامل المختلفة التى أدت إلى وقوعها، والملابسات التى سبقتها أو عاصرتها مثل التخطيط لها والإعداد لارتكابها، ومرحلة التنفيذ وكيفيته، وما أعقبه من آثار، فضلا عن السمات الشخصية لمرتكبيها، فإنها قليلة جدا تتناثر فى بعض كتب التفسير ـ وبخاصة المتأخر منها ـ مثل تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ،وتفسير «فى ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب، وتفاسير قليلة أخرى. غير أنه يلاحظ أنها لم تتناول كل ما تقدم من موضوعات، وإنما اقتصرت على بعضها دون البعض الآخر، فالمفسر الذى تناول دوافع الجريمة أو بواعثها نجد أنه قد ترك العوامل التى تفاعلت فأدت إلى ارتكابها، مثل العوامل الاقتصادية والاجتماعية والشخصية وغيرها. والمفسر الذى اهتم بمرحلة التخطيط للجريمة والإعداد لارتكابها، نجد أنه لم يهتم ببيان سمات شخصية الجانى أو المجنى عليه. . . وهكذا.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه بالنظر إلى أن أغلب الجرائم التى وردت بالقرآن الكريم كانت فى شكل قصص، وإن اختلفت فى الحجم، إلا أنها جميعا قصيرة تتراوح بين ست أو سبع آيات وثلاث وسبعين آية، كما فى قصة لوط وقومه، فإن الغالبية العظمى من المفسرين، وبخاصة القدامى منهم اضطروا إلى الاستعانة بمصادر أخرى عند تفسيرهم لهذا القصص، فاستعانوا بما ورد فى

التوراة بخاصة وفى الإسرائيليات بعامة دون أن يمحصوه فى كثير من الأحيان، أو يخضعوه للنقد العلمى، الأمر الذى أوقعهم فى كثير من الأخطاء، وأصاب القراء بالحيرة ؛ لا يدرون ماذا يأخذون وماذا يتركون. وسنجد فى هذا الكتاب بعض الأمثلة التى تثبت ذلك كما تثبت أيضا أن كثيرا من المفسرين لجأوا إلى النقل عن مفسرين آخرين دون أن يكلفوا أنفسهم عناء النظر فيما نقلوه، مما جعلهم يكررون نفس الأخطاء التى وقع فيها المفسرون الذين نقلوا عنهم، وبالتالى جعلوا من يقرأ كتبهم يستبعد أن يكون هناك أية أخطاء، وإلا ما وقع فيها كل هذا العدد من المفسرين الذين لابد وأنهم قد تأكدوا من أن ما نقلوه عن زملائهم صحيح تماما، وإلا لكانوا استبعدوه بعد أن يبينوا خطأه كما فعل بعض المفسرين: مثل ابن كثير فى القدماء، ومحمد رشيد رضا فى المحدثين.

وفيما يتعلق بالجرائم التى عالجها القرآن الكريم سيلاحظ القارىء ـ للوهلة الأولى ـ أن كل جريمة منها تمثل نمطا مختلفا من أنماط الجريمة. فمن حيث المساهمة فى الجريمة نجد مثالا للجريمة التى يرتكبها فاعل واحد (قتل ابن آدم لأخيه) ومثالا آخر للجريمة التى يساهم فيها عدد من الأشخاص، بعضهم قام بدور الفاعل والبعض الآخر قام بدور الشريك (الشروع فى قتل يوسف عليه السلام) أما المثال الثالث فخاص بالجريمة التى يرتكبها عدد كبير من الأشخاص، ليس بينهم من قام بدور الشريك، بل كانوا جميعا فاعلين. وفى كل مثال يبين لنا القرآن ما يقوم من اختلافات بن النمطين.

كذلك فيما يتعلق بالباعث على ارتكاب الجريمة، وهو الذى يختلف من جريمة إلى أخرى. ففى جريمة قتل ابن آدم لأخيه كان الباعث على الجريمة الحسد وكذلك شروع أبناء يعقوب فى قتل أخيهم يوسف، وذلك بخلاف جريمة امرأة العزيز التى كان الباعث عليها الشهوة الجنسية العارمة التى سيطرت على هذه المرأة. أما جريمة قوم لوط ـ وهى إتيانهم الفاحشة ـ فإن الباعث عليها تمثل فى فساد الفطرة الناشىء عن تقليد العامة للخاصة فى ممارستهم للجنس الذى يكون

طرفاه من نفس النوع: ذكرين (لواط)، أنثيين (سحاق) إلى أن أصبح ذلك عادة تمكنت منهم، وانتقلت من السلف إلى الخلف، ومن النساء إلى الرجال.

وفيما يتعلق بالعوامل التى تتفاعل فتؤدى إلى وقوع الجريمة سنلاحظ أن القرآن الكريم قدم لنا أمثلة من الجرائم تختلف فيما بينها بحسب نوع العوامل التى ساهمت فى وقوعها. ففى جريمة قتل ابن آدم لأخيه كان العامل شخصيا خالصا، يتمثل فيما كان يعيب شخصية الأخ القاتل من طمع وحسد وفساد فى التفكير وتسرع فى اتخاذ القرار دون إعمال نظر، أما فى جريمة إخوة يوسف فإن عامل التنشئة الاجتماعية يبدو دوره واضحا حيث كان الإخوة غير أشقاء من ناحية الأمهات اللاتى كان عددهن أربعًا نشأن أبناءهن على كراهية بعضهم لبعض وخوفهم بعضهم من بعض!. وقد تفاعل العامل الاقتصادى مع العامل الاجتماعى، ثم انضم إليهما العامل الشخصى فكانت الجريمة. وفى جريمة امرأة العزيز نجد تفاعلا واضحا بين العوامل الشخصية والاقتصادية والاجتماعية، انعكس لا على سلوك المرأة وحسب، بل وعلى سلوك زوجها ونساء المدينة والملك نفسه. إلى غير ذلك من الاختلافات التى تقوم بين الجرائم سواء من حيث الملابسات التى سبقت أو عاصرت الجريمة، أو من حيث النتائج التى ترتبت عليها.

ومن بين الجرائم الأربع التى يشتمل عليها هذا الكتاب جريمتان وقعتا فى الأسرة، إحداهما جريمة قتل ابن آدم لأخيه، والثانية جريمة شروع إخوة يوسف فى قتله، مما يدل على اهتمام القرآن بالأسرة ولفته الأنظار إلى مايسودها من ظروف، وما يقوم فيها من علاقات كثيرا ما تؤدى إلى الجريمة. فإذا أضفنا إلى هاتين الجريمتين جريمة امرأة العزيز التى وقعت هى الأخرى داخل الأسرة فسيتبين لنا الدرجة التى بلغها اهتمام الإسلام بالأسرة.

كذلك سنلاحظ أن الإسلام لايمنع البحث فى الجريمة للتعرف على أسبابها ودوافعها من أجل العمل على الوقاية منها، وأن القرآن الكريم عالج جريمتين

جنسيتين كبيرتين، إحداهما جريمة امرأة العزيز، والثانية جريمة قوم لوط، ومع ذلك فإنه خلا تماما من أى إثارة للمشاعر، وهى التى تقترن دائما بالموضوعات الجنسية، فكأنه يعلمنا كيف نتعامل مع هذه الموضوعات دون أن نثير الغرائز، أو ندغدغ الحواس مما يؤدى إلى إقدام الناس - وبخاصة الشباب - على ارتكاب الجرائم الجنسية، وهو ما نلاحظه على ما تنشره الصحف هذه الأيام، من موضوعات جنسية بطريقة فجة تثير الغرائز، وتلهب الحواس، ثم تدعى أنها إنما تقصد العلاج والوقاية!

وفضلا عما تقدم فإن القارىء سيجد فى هذا الكتاب موضوعات مختلفة، وإن بدت بعيدة عن الجريمة والمعالجة القرآنية لها، إلا أنها فى الواقع لا تخلو من الفائدة، مثال ذلك الخطأ فى تسمية الشذوذ الجنسى باللواط؛ لأنه ينسب هذا النشاط الإجرامى إلى لوط، فى حين أن الذين كانوا يمارسونه هم قومه سكان سدوم. وكذلك ما إذا كان لوط قد بعثه الله تعالى إلى أهل سدوم منذ البداية ليدعوهم إلى الكف عن إتيان الفاحشة أم أن ذلك حدث بعد أن قضى بين ظهرانيهم بعض الوقت. وكم كانت المدة التى قضاها، إلى غير ذلك من الموضوعات التى نرجو أن نكون قد وفيناها ما تستحقه من البحث والدراسة؛ سائلين المولى - عز وجل - أن يجعل فيها فائدة للمسلمين.

وبالله التوفيق